ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 27 سبتمبر 2016

أسئلة القرآن:
تدوين المصحف

ميشيل أورسال
ترجمة: الزواوي بغوره

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

أسئلة[1] القرآن[2]:
تدوين المصحف

تأليف: **ميشيل أورسال**[3]
ترجمة وتعليق: **الزواوي بغوره**[4]

1- نشرت هذه الترجمة في مجلة "ألباب"، العدد 8، شتاء 2016، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

2. هذه ترجمة للفصل الثالث من كتاب: **اكتشاف الإسلام، بحث تاريخي في الأصول**، منشورات بيران، باريس، 2012، لمؤلفه ميشيل أورسال، ص 41 - 69. ولقد فضلنا عنونة هذا الفصل بأسئلة القرآن بدلا من ألغاز القرآن، لأن المؤلف يماثل بين اللغز والسؤال في نهاية الفصل، ولأنه اكتفى بطرح أسئلة حول بعض «الحقائق» و«المعطيات» التاريخية الخاصة بتدوين المصحف. كما فضلنا استعمال المصحف في العنوان الفرعي للفصل بدلا من لفظ (vulgate) التي تعني حرفيا ترجمة الكتاب المقدس الخاص بالأناجيل، لأن المؤلف يتحدث في متن النص عن المصحف العثماني. وهو ما يتسق والسياق الثقافي لتلقي النص.(م).

3. كاتب ومحلل نفساني فرنسي، يدير مجلة: **الأبحاث الرومانية المقارنة**، ويجري منذ فترة طويلة أبحاثا حول الإسلام، من بينها كتابه: **الكرامة في الإسلام**، 2011.(م).

4. باحث وأكاديمي جزائري.

كانت قضية غامضة حتى أنّ أحدا لم يتوصّل فيها إلى الكلمة النهائيّة إلى يومنا هذا[1]. حدثت هذه المغامرة، التي تشبه ـ مغامرات (تانتان)[2] أو (أنديانا جونز)[3] في زمنين بصنعاء، العاصمة العجيبة لليمن حيث تتشابك ناطحات السحاب مع السماء الزرقاء. في العام 1965، وكما يحدث من حين لآخر في المنطقة العربية، سقطت أمطار موسمية على المدينة، فأحدثت أضرارا في سقف مكتبة المسجد الكبير. فأصدر مدير المتحف الوطني أوامره بضرورة تقييم الأضرار، وخلال هذه العملية اكتشف ما يشبه خلية أو غرفة لها كوة صغيرة، وليس لها باب. وهي عبارة عن خزان منسي يحتوي مخطوطات عربية قديمة. في خمسة أكياس أو ستة من الورق جرى جردها ووضعها في مكتبة الأوقاف. ومع الوقت تم نسيانها، بحيث لم يتردد محافظ المكتبة في استغلال بعض هذه القطع التي لا تقدر بثمن لحسابه الخاص، والتي سيظهر بعضها في السنوات القادمة في المزادات العالمية الكبرى، وبخاصة في مزادات سوثبيز(Sotheby‘s) وكرسيتيز(Christie‘s)[4]... وفي أثناء ذلك، وفي عام 1972 تحديدا، شُرع في أعمال ترميم جدار الزاوية الشمالية الغربية للمسجد. لقد كان المخزن في هذه المنطقة، وهكذا وقع العمال على منجم جديد من الرقوق ومن الأوراق الحبيسة منذ قرون، ومخطوطات مهملة، ربما أبى الورع الإسلامي أن يتلفها. ولهذا السبب، يعتقد أن الأمر شبيه ومماثل بـ: (قبور الورق) تلك التي يدفن فيها اليهود النصوص المقدسة التي لا يستعملونها، ويمتنعون عن إتلافها. وأيا كان الأمر، فإن المنجم الثاني من المخطوطات بدا أكثر غنى إذا ما قورن بسابقه، فقد ملأت عشرين كيسا من أكياس البطاطا، قبل أن يتنبه مدير الآثار اليمنية إلى أهمية هذا الاكتشاف، وإلى حجم التزوير الذي قد يتعرض له. لذا شرع في البحث عن مساعدة دولية من أجل إنقاذ هذا المخزون الثمين وترميمه. ولأن هذه المخطوطات تنطوي على سر علمي وديني، وأن عددا كبيرا منها هو مخطوطات قرآنية، بعضها رقوق ومخطوطات قد جرى محو النص الأول - (أو ما نسميه المختصر) من أجل تحرير نص ثانٍ - وهي مخطوطات لا مورد للشك في أنها من بين أقدم المخطوطات التي نملكها عن النص المقدس للإسلام[5].

إنه لخبر جميل لذوي النفوس الطيبة. نعم، هو كذلك لعلم الإسلام الغربي الذي يفرك يديه (خفية) أمام هذه المعجزة الأركيولوجية. وأما بالنسبة إلى المسلمين التقليديين فلا، ذلك لأنهم سيعرفون شيئا فشيئا، ومن

1. تستند علاقتنا على غربلة للمعلومات الموثوقة والمقدمة من قبل (Awareness Islamic)، وهو موقع انجليزي يدافع عن الإسلام ويناضل بشدة، ولكنه في بعض المجالات، يشهد على معلومات متميزة. انظر:

- (V.Codex * San'a DAM de 01 a 27,1- a Qur'anic Manuscript from Mid-1st Century of Hijra).

2. تانتان شخصية خيالية ابتدعها الرسام البلجيكي جورج ومي (1907-1983) في سلسلة رسوم الأطفال بعنوان: مغامرات تانتان الذي يؤدي دور الشخصية الأساسية. (م).

3. أنديانا جونز شخصية خيالية ابتدعها المخرج السينمائي جورج لوكا. وهي شخصية مغامرة وأستاذ في علم الآثار. بدأها المخرج السينمائي ستيفن سبيلبرغ بفيلم مغامرات القوس الضائع في العام 1981 وأدى هذا الدور الممثل هاريسون فورد. ثم تجسدت هذه الشخصية في سلسلة أفلام، ومسلسلات تلفزيونية وروائية، ورسوم متحركة، وألعاب الفيديو. (م).

4. سوثبيز شركة عالمية للمزادات تعد رابع أقدم دار للمزادات في العالم، تأسست في لندن في العام 1744. وكريستيز هي أيضا شركة مزادات عالمية مشهورة، مقرها الرئيسي في لندن، تأسست في العام 1766.(م).

5. نشير إلى أن اكتشاف مخطوطات جديدة قد استمر في صنعاء إلى غاية العام 2007. انظر:

- (Chronique du manuscrit au Yémen, N°4).

خلال تعليقات علمية، أن هذه الأوراق التي يعود تاريخها إلى الثلث أو الربع الأول من القرن السابع، أي بين عشرين وخمسين سنة من وفاة الرسول، لا تشبه المصحف المعتمد للكتاب المقدس...!

ولكي نعي خطورة هذا الخبر الجديد، علينا أن نعرف أن العربية هي لغة لا نكتب فيها إلا بحروف الصوامت، وأن الصوائت الثلاثة القصيرة تستنتج من السياق النحوي. وأنه من أجل قراءة آمنة لأي نص غير مضبوط بالشكل، يجب سلفا، تفكيكه بسرعة. أما بالنسبة إلى القرآن، وهو الذي كتب بلغة قديمة وغامضة في الغالب، فإن الصوائت قد جرى تثبيتها في صورتها النهائية، ومنذ البداية (وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقا)، وذلك بهدف استبعاد أي خطأ، ولم يكن الأمر كذلك في النسخ الأولى للقرآن. ولكن ليس هذا كل ما في الأمر. إذ أن علامات الإعجام في النصوص القديمة جدا- وهي العلامات التي تسمح اليوم بتمييز الحروف التي تكون متشابهة الرسم - لا توجد أو لا تظهر إلا بطريقة غير منتظمة، وهو ما يؤدي إلى وقوع وجوه من اللبس التي تلحق الضرر بالنص.

في هذا السياق ثمة طرفة تروى، ربما تم اختلاقها لأسباب هجائية، ولكنها تُجمل على نحو رائع هذه الظاهرة والمخاطر التي تمثلها. أصدر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ذات يوم إلى عامله على المدينة أمرا يقضي بـ (إحصاء المغنين) في هذه المدينة. ولم يضع كاتب الخليفة نقطة ضابطة كما كان متداولا في ذلك الوقت على كلمة (أحص)، فافترض عامل المدينة وجود نقطة فوق حرف الحاء، وهو ما يعني (إخص)، فقام بإخصاء كل المغنين في المدينة[6].

لنعد إلى قضية مخطوطات صنعاء: بالنسبة إلى الإسلام الرسمي، فإن القرآن باعتباره كلام الله الذي أنزله على رسوله خلال عشرين سنة من الوحي، قد جمع جمعا وفيا في عهد الخليفة عثمان(644-656)، ولا وجود لنسخ متعددة للنص المقدس. حقا إن الإسلام يسمح بالقول - بناء على نص من السنة- أن الرسول قد أقر بتعدد وجوه القراءة، ومن ثم بوجود متغيرات طفيفة في تلاوة السورة الواحدة، لكنها ليست متناقضة، ثم إنها مقننة تقنينا صارما. ولكن الأمر لا يتعلق، كما نقول حرفيا، بوجود اختلافات نصية، ودون ذلك اختلاف في المعنى. والحال، فإن عددا من المخطوطات اليمنية التي اكتشفت، وهي الأقدم، تبدي وجوه اختلاف في النص قليلة، وخروجا عن القاعدة في تقطيع السور، كم أن ترتيب السور في بعض الأحيان، لا يتبع النظام الذي يعتبر اليوم نظاما معتمدا. إن تلك الحالات المتفاوتة التي كشفت عنها مخطوطات صنعاء، والتي لا تنسجم مع وجود تصور ثابت للقرآن هي قليلة جدا في أعين المؤمنين الغربيين الذين تخلوا، باستثناء بعض الجماعات[7]، عن الإيمان بقدسية الحرف. غير أنها لا تتفق مع التاريخ المعتمد لجمع وكتابة النص المقدس وتدوينه تحت حكم الخلفاء الأربعة الذين يسمون في الإسلام بـ «الخلفاء الراشدين».

6. روى هذه الطرفة الأديب الكبير الجاحظ في كتاب: **الحيوان**. وكان المغنون في المنظور الثقافي في تلك الحقبة يمثلون مراكز تجمع للعلاقات الجنسية.

7. يتعلق الأمر باليهود الأرثوذكس، والبروتستنتية الأصولية.

ولكن هذا الأمر لم تدركه السلطات اليمنية بسرعة، فبحثت أول الأمر عن الوسائل التي تحفظ بها هذا الكنز الثقافي. ولأنهم يفتقرون إلى مختصين محليين، توجهوا إلى العالم الخارجي. وقدمت الدعوة الأولى خلال مؤتمر «المدينة الإسلامية» الذي عقد بكامبردج في العام 1976. وجرت اتصالات مع السلطات العلمية الدنمركية التي عرضت مساعداتها، شريطة أن ترسل المخطوطات إلى الدنمرك لمعاينتها وترميمها. تُرى هل أقلق هذا الشرط اليمنيين؟ الواقع أنهم رفضوا المقترح الدنمركي، وتواصلوا مع وزارة الخارجية الألمانية الفيدرالية التي قبلت بإرسال بعثة إلى اليمن، والتكفل بمصاريفها بغرض ترميم هذه المخطوطات وتصنيفها في عين المكان. وبدأت هذه اللجنة العمل في العام 1980 تحت قيادة جارد ر. بوين (Gerd R.Puin)، المختص والعالم في مجال النصوص القرآنية القديمة (paléographie)، والأستاذ في جامعة دو لسار(de la Sarre)، يساعده في ذلك هانز-كاسبر غراف فون بوثمر (Hans -Caspar Graf von Bothmer)، (والذي سيخلفه عندما يتكدر صفو العلاقة بين رئيس البعثة والسلطات اليمنية)، وكذلك بمساعدة محافظة المكتبة ايرسيلا دريبهولز (Ursula Dreibholz).

لا نعلم أشياء كثيرة عن سير عمل هذه اللجنة، كما أن معلومات متناقضة قد جرى تداولها، وبخاصة حول مصير(35000) فيلم صغير استخرجها كل من بوين وبوثمر من (12000) مقطع قرآني. وبحسب بعض المصادر، أعلن بوين أن السلطات اليمنية قد حجبت (بشكل إرادي ومقصود) هذه الأفلام، (في حين قالت) بعض المصادر الأخرى أن تلك الأفلام لم تكن مقروءة (...). المؤكد هو أنه إما بحكم الادعاء أو الرعونة، فإن المختص الألماني الذي ائتمنته الأقدار أخيرا على هذا المنجم الثمين، لم يبخل على نفسه بتصريحات متضاربة (شبيهة بالمفرقعات)، وما يدعو للفضول، هو أنه عاد إليها لاحقا. وفي تقديره، فإن هذه المقاطع تشهد أولا، على تاريخ للنص القرآني يختلف كثيرا عن التاريخ الرسمي. وعلميا، فإن هذه المسألة تبقى معلقة وسنرى ذلك. ولكن الرجل دفعه التهور إلى الدفاع على أنه إذا كان النص الأصلي للرقوق قد تم محوه ليكتب عليه نص آخر، فإن السبب في ذلك يعود إلى أن النص الأول أصبح غير مقبول، وهذه فرضية أيديولوجية وليست فرضية علمية. ذلك أنه لا شيء يمنع على سبيل المثال من أن نتصور أن هذه المساند قد قامت بدور مماثل لدور الألواح (التي هي في الواقع لوحات من خشب) وهي التي يستعملها التلاميذ المسلمون في تعلم النص القرآني. وبالإضافة إلى هذا، فإن الكتابة المستعملة في القرن السابع كانت محدودة إن لم تكن رديئة (ينقصها كما قلنا الضبط بالصوائت، وعلامات الإعجام)، (ومن ثم) **لا تسمح بقراءة دقيقة إلا لمن كان على علم سابق بالنص.** ولقد كانت النسخ القرآنية الأولى المكتوبة، وقبل أن تصبح (كتبا)، تستعمل بالضرورة على أنها نسخ تعين الذاكرة، شبيهة بالتقسيم الغريغوري القديم جدا حيث تسمح الأنغام للمغني أو المنشد أن يجد النغمة المختزنة في ذاكرة الأذن. أما من الوجهة العملية، فإنه إذا كان مؤكدا أن النص الممسوح من الرقوق كان نصا قرآنيا، فإنه لا شيء يسمح باستخراج نتائج متعجلة تتعلق بحقيقة النص وجوهره ومادته قبل النهوض بإنجاز دراسة شاملة. ثم إن الفرضية القائلة بوجود الحواشي أو التعليقات قد استعملت لغرض التعلم، وقد تم إثباتها مؤخرا من دراسة أحد الرقوق. «وتوجد (في هذه الوثيقة)

اختلافات في النص السفلي (الحاشية) لم يجر الإشارة إليها في الأدب الكلاسيكي. ولقد صرحت أسماء الهلالي من جامعة هال- فيتنبورغ، فقالت بشأنها إنها تتضمن تعليقات تعليمية تبين أن الذي كان يكتب كان في الوقت نفسه يتعلم القرآن، ويبحث عن معالم تعينه على تقوية ذاكرته حتى يتذكر النص. إن النص السفلي (الحاشية) هو إذن، كان وسيلة للكتابة وتعلم القرآن وليس محاولة لتدوينه. إنها تشهد على تاريخ نقل النص وليست محاولة لتدوينه تدوينا يكتسب صفة القداسة»[8].

كان اكتشاف صنعاء كبيرا بالنسبة إلى المختصين، وإن لم يكن خارقا، لأن ثمة في العالم بعض المخطوطات القرآنية القديمة تقريبا قدم مخطوطات صنعاء (باريس، لندن، روما، اسطنبول)[9]، وهي ثمينة أيضا من وجهة نظر فقه اللغة. وفوق هذا، فإن قبة الصخرة التي تعود إلى 692-691، أي إلى ستين سنة بعد تاريخ الوفاة الرسمي للرسول، مزينة بكتابات قرآنية تفهم منها مؤكدا على أنها إشارات دالة على أن النص النهائي للقرآن لم يدون تدوينا نهائيا، ولكن النقد المتقدم خلص إلى أن النص المقدس كان قد دُوِّن ووُزِّع، وأن الخليفة الذي شيد القبة، إنما أراد أن يرسل برسائل سياسية ودينية. وسنعود إلى هذا الموضوع في الفصل الأخير. ولقد بينت المختصة الأمريكية استال ولان (Estell Whelan)، أننا نستطيع اليوم، وضمن الاتجاه نفسه، تحليل الكتابة التي ضاعت، والتي نجدها في المسجد النبوي بالمدينة. ولقد افترضت هذه الباحثة وجود مدرسة للخط في هذه المدينة في القرن السابع تهتم بنسخة القرآن[10].

هذا لا يمنع من الإقرار بأهمية اكتشاف صنعاء، والدعاية الإعلامية التي أعطاه إياها بوين الذي نشر الهلع في العالم الإسلامي. أو على الأقل في عالم الإسلام الرسمي، أو (الكهنوت) كما نقول نحن، والذي كان، وفي ظروف مماثلة، على الكنيسة أن تواجه النقد العلمي للأناجيل، وما كان للكنيسة أية رغبة في أن تتخلى عن عقيدتها، وأن تشرح للمؤمنين أن الرواية التي جرى ترسيخها إلى ذلك الحين، يجب تعديلها ....

التاريخ الرسمي للنص المقدس

ما الذي يقدمه لنا الإسلام في هذا الموضوع؟

بحسب الرواية الإسلامية، لم يكن القرآن موجودا في صورة مدونة مكتوبة زمن الوحي. ولا وجود لملحق إضافي كامل قد سمح به الرسول. في المقابل، هنالك مقاطع طويلة بعض الشيء يجري التذكير بها

8. A. Hilali, *Ce que disent les manuscrits de Sanaa*, **Le Courrier de l'Atlas**, N°52, 3 octobre 2011.

9. ولكن علينا أن نحذر من الفكرة الشائعة التي تردد أن نسخة القرآن الموجودة بطشقند أو تلك الموجودة في متحف توب كابي هي (مصحف عثمان)، وذلك لأن هذه المخطوطات في الواقع متأخرة كثيرا.

10. حول هذا الموضوع، أنظر خاصة:

- E.Whelan, *Forgoten Witness: Evidence for the Early Codification of the Qur'an*, **Journal of the American Oriental Society**, vol.118, 1998.

سنعود إلى هذه الكتابات في الفصل الأخير.

من قبل بعض الصحابة، وبعضها الآخر كتبت على مواد مختلفة (قطع من الجلد، شقف[11]، أضلاع أو ألواح كتف الجمال...الخ). بعد وفاة النبي، دعا عمر، الذي سيصبح الخليفة الثاني[12]، والذي خشي أن يضيع القرآن بموت عدد كبير من المجاهدين الحفاظ[13]، الخليفة الأول أبا بكر (632-634) إلى جمع مختلف أجزاء الوحي وكتابتها كلها. وعهد بمهمة التدوين إلى زيد بن ثابت، الذي كان قد درس على يهود يثرب (المدينة لاحقا)[14]، وكان أول كاتب للنبي، وعرف بحفظه للكتاب عن ظهر قلب. وقد تردد في أول الأمر (و سنعود إلى هذا الموضوع). واعتمد زيد على مصدرين هما: الذاكرة (ولم يكن الوحيد الذي حفظ (كتاب الله كله أو جزءا منه)، وهنالك الأجزاء المكتوبة. ولقد تم جمع الكل وسلم للخليفة. بموت الخليفة، انتقلت المدونة إلى خليفته عمر (634-644)، وبعد ذلك عهد بها إلى إحدى بناته، حفصة التي كانت إحدى زوجات الرسول.

إذن، كانت هذه النسخة ملكا خاصة للخليفة، ولم تتداولها أيدي الناس. وفي الواقع، كانت تتعايش مع مقتطفات جمعها شخصيا بعض صحابة الرسول، ومنهم: علي (صهر الرسول وخليفته الرابع)، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود[15]. وهذه النسخ (نعرفها من خلال شهادات متأخرة ولكنها دقيقة) تختلف قليلا عن نسخة الخلافة، ليس في متغيرات نصية فحسب، بل في الترتيب أيضا، وكذلك في عدد السور.

ودائما، وبحسب الرواية الرسمية، فإنه في عهد الخليفة الثالث عثمان (644-656)، نشهد على اختلافات عديدة أثرت، بحسب القراءات، في تلاوة النص المقدس. والواقع، أنه بالإضافة إلى وجود نسخ أخرى سبق أن أشرنا إليها، فإن الإمبراطورية العربية قد توسعت في سنوات معدودة وفي مناطق بعيدة عن المركز الأصلي للإسلام، ومع الزمان والمكان، ما فتىء خطر الوقوع في الخطأ أو سوء التأويل يتعاظم ويكبر. لقد وقع هذا الحدث، بحسب ما يقال أو يروى، في أثناء الحملة على أرمينيا في العام 650 إذ تنبهوا لهذا الخطر. وبطلب من القائد حذيفة، الذي دعا الخليفة إلى أن (يدرك) الأمة «قبل أن تختلف على الكتاب اختلاف اليهود والنصارى»[16]. ولذا طلب الخليفة عثمان باسترجاع الصحف المجموعة عند حفصة. وقام زيد بمساعدة لجنة قرشية مشكلة لهذا الغرض، بالتثبت من هذه الصحف وبالتصحيح اللغوي. وبعدها تم إتلاف مختلف المخطوطات السابقة من المصحف الجامع. وهذه النسخة هي التي نسميها (مصحف عثمان). ولقد قام الخليفة بإرسال نسخ إلى مختلف عواصم الإمبراطورية.

---

11. الشقف قطع من الخزف المكسر، أو اللخاف. (م).

12. يقول الكاتب حرفيا الخليفة الثالث وهذا خطأ لا شك فيه، وقد يكون خطأ مطبعيا. (م).

13. المقصود بذلك القراء.(م).

14. وذلك بحسب الواقدي، الذي نقله وحلله ألفريد لويس دي بريمار في كتابه: **أسس الإسلام**، مرجع سبق ذكره، انظر بخاصة ص 306 وما يليها في صفحة 465. للمزيد أنظر الترجمة العربية:

- الفريد لويس دي بريمار، **تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ**، ترجمة عيسى محاسبة، مراجعة مروان الداية، دار الساقي، بيروت-لبنان، 2009. (م).

15. من أجل تحليل نقدي لمصادر هذه الشخصيات، انظر المرجع السابق ص ص 313-302

16. المرجع نفسه، ص 288

وبدلا من أن تفي وتلبي الغرض المطلوب والمتمثل في وحدة الأمة، لقيت هذه النسخ معارضة من جانب بعض صحابة الرسول، وبخاصة من (علي وابن مسعود)، حتى وصل الأمر إلى حد الشجار. وبحسب بعض الرواة، فإنه عندما رفض ابن مسعود أن يسلم نسخته، فإن رسول الخليفة ضربه ضربا أفضى إلى كسر ضلعين من ضلوعه. لم يغفر ابن مسعود لعثمان هذا الفعل أبدا. وبحسب المؤرخ الكبير الطبري فإن «حفظة القرآن الرسميين» لم يكونوا أقل سخطا وغضبا، ولقد عبروا للخليفة عن عتابهم وقلقهم بالقول: «كان القرآن **كتبا عديدة**[17]، وأنت جعلته كتابا واحدا»[18].

ويضاف إلى ذلك أن ابن الخليفة عمر[19]، والمعروف بورعه وتقواه، قال لعثمان: «لا تسمح لأحد أن يقول لك إنني امتلك القرآن كله. كيف لنا أن نعرف القرآن كله؟ **أشياء كثيرة من القرآن قد ضاعت إلى الأبد**...»[20]. إن هذه الشهادات تخرجنا عن الإطار الرسمي للرواية. ومهما كانت التحفظات و(الشكوك التي يمكن أن تثيرها اليوم في الروح المسيحية)، فإن مقتل عثمان ثم علي قد عجل بتلقي المصحف. ولكنه، وإن لم يكن خطه أو رسمه محددا تحديدا كافيا، فإنه قد صار متقنا وكاملا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك، ورجل نظامه القوي الحجاج بن يوسف الثقفي. وتبسيطا للأمور - ذلك لأنه لم يجر تثبيت القراءات المرخص بها إلا في القرن العاشر، وهي تتضمن تغيرات بسيطة للغاية وغير ذات أهمية كبيرة – نستطيع القول إن هذه النسخة هي المتداولة اليوم في العالم الإسلامي عن طريق طبعة القاهرة، على الرغم من أن الطبعة تختلف عن تلك التي تفضلها بلدان إفريقيا السوداء[21].

هذا هو الحاصل بالنسبة إلى كتابة النص أو تدوينه. فإذا لم ننظر من قرب شديد، أو لم ندقق، فإنه تاريخ مقنع. ولكن الباحث عادة ما يلجأ إلى المناطق المضطربة والمثيرة للقلق، و(إلى تلك المناطق) الغامضة التي تتعلق بالتاريخ والنص معا. فما النقاط التي تغذي الشك في علم الإسلاميات العلمانية؟

لننظر بداية في مسألة النص. طرح علماء الإسلاميات الغربية أولا ما يكتنف كلمة (القرآن) من لبس، تلك التي قد تكون من أصل سرياني. لاحظ الفريد لويس دي بريمار أن اللفظ يستعمل مرة لتعيين كل ما

17. أبرزها المؤلف.(م).

18. الطبري، **الحوليات**، الجزء الأول 2952، ذكره الفرد لويس دي بريمار في كتابه:

- **Aux origines du Coran: questions d'hier, approches d'aujourd'hui**, teraedre, 2004, p.78.

و كذلك:

- Mohammed Ali Amir-Moezzi, **Autour de l'histoire de la redaction du Coran**, p.11.

19. لم يذكر المؤلف اسم هذا الابن، ولكن المرجح أنه يقصد عبد الله بن عمر، لأنه معروف بهذا الوصف.(م).

20. هذا القول أوردته عدة مصادر. انظر:

- Mohammed Ali Amir -Moezzi, op-cit., p.11.

- إبراز النص من المؤلف.(م).

21. لم يبين المؤلف هذه الاختلافات، وهي أن طبعة القاهرة توافق رواية حفص عن عاصم، وفي المغرب توافق رواية ورش عن نافع، وفي بعض البلدان الإفريقية عن قراءة أبي عمرو. (م).

سمعناه عن النبي (و ليس الوحي فقط)، ومن ثم فإنه يستعمل بصيغة الجمع. ثم إن التمييز بين القرآن والحديث النبوي يبدو أنه كان تمييزا متأخرا بعض الشيء. وهذا المؤلف نفسه يتساءل، وله الحق في ذلك عندما يتعلق الأمر بالتمييز بين القرآن والأحاديث القدسية. نستطيع بالفعل أن نتساءل لماذا هذه الأحاديث التي تم جمعها من قبل السنة بوصفها كلام الله، لم يتم ضمها إلى السور القرآنية؟ وما طبيعتها المختلفة؟

من الزاوية التاريخية، فإن مواطن الغموض، بل مواطن التناقضات، ليست قليلة. ولكي نبدأ، فإن كثيرا من الروايات تشير إلى أنه عندما دعا أبو بكر وعمر، زيد بن ثابت إلى تدوين القرآن صرخ زيد قائلا: «أتريدون أن تفعلوا ما لم يفعله رسول الله نفسه...»[22]. إن هذا الرد جدير بالذكر، وإننا نتساءل اليوم أيضا عن الأسباب التي جعلت النبي لم يأمر بجمع الكتاب المقدس وتدوينه. بعضهم قدم استنتاجا (جريئا ولكنه مثير) وهو وجود تشابه وتماثل كبير بين حفظة القرآن[23] وبين رواة الشعر العربي القديم الذين لا يترددون في تحسين الجانب اللغوي لهذه المقاطع أو النصوص. إذن، في البداية، فإن حفظة القرآن، والناقلين لحديث الرسول، سُمح لهم بـ(تحسين) النص، ولكنه أمر لا يمكن السماح به طويلا بالنسبة إلى الكتاب المقدس.

وثمة تساؤلات أخرى. قد يكون مقبولا أن النسخة الأولى الخاصة بالخليفة أبي بكر قد بقيت نسخة خاصة، ولم تستعمل بوصفها نسخة معتمدة للجماعة: فما جدوى أن يكون النص مرجعا إذا لم نُحل إليه؟ وليس أقل عجبا ودهشة، أن هذه المدونة بعد موت الخليفة الثاني عمر، لم تنقل إلى الخليفة الثالث، بل ظلت في حوزة بنته حفصة. ثم إن المصادر الإسلامية لم تتفق على أسماء أعضاء اللجنة التي شكلها عثمان لمساعدة زيد في عمله، في حين أن المفروض هو أن تكون تشكيلتها محددة. وأخيرا، فإنه إذا كان الخليفة قد نجح في إتلاف كل الوثائق السابقة لمصحفه، فإن نصيب هذه الفكرة من المصداقية قليل، كما أنها تتناقض مع التاريخ: لقد كانت الإمبراطورية واسعة، ومتعددة في أشكالها، وتخضع لتأثيرات كثيرة، ومن ثم إمكانية

22. لم يوثق المؤلف هذه الرواية التي تقول: عن زيد بن ثابت، قال: "أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إنّ عمر أتاني، فقال: إنّ القتل استحّر بقُرّاء القرآن، وإنّي أخشى أن يستحرّ القتل بالقُرّاء في المواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال عمر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتّى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنّك شابّ عاقل، لا نتّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتتبّع القرآن فاجمعه - فوالله لو كلّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليَّ ممّا أمرني به من جمع القرآن - قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتّى شرح الله صدري للذي شرح به صدر أبي بكر وعمر. فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره ((لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم...)) (التوبة 9: 128) حتّى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتّى توفّاه الله، ثمّ عند عمر في حياته، ثمّ عند حفصة بنت عمر». أنظر:

- عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح، المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، الجزء الثالث، شرح وتحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر-القاهرة، 1400 هـ، ص 337-338. وكذلك:

- أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، **المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط**، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية، بيروت- لبنان، 2011، ص 117. (م).

23. حفظة القرآن، أو القراء، أو المرتلون.(م).

لوجود نسخ أخرى (ليست معتمدة)[24] و(لكنها ليست أقل أهمية من حيث نوعية النقل، وهذا ما رأيناه سابقا[25])، ولقد بقيت متداولة إلى أمد طويل. فنحن نعلم أن نسخة أبي بن كعب كانت لا تزال موجودة بنسخ كثيرة في القرن التاسع في إقليم البصرة، وأن نسخة ابن مسعود لم تندثر إلا في القرن العاشر حيث تم إتلافها من قبل السلطات[26]. إن الأوراق الأكثر قدما والتي وجدت في المسجد الكبير بصنعاء بنفس الطريقة تشهد بأنه، وفي أقل من نصف قرن من بعد وفاة الرسول، وربما قبل تثبيت مصحف عثمان بقليل (إن لم يكن قبل ذلك)، أقول إن هذه الأوراق شاهدة على وجود تغيرات كانت قد وقعت حتى في منطقة قريبة من منطقة مكة. وإذا ما صدقنا التراث، فإن المسجد قد بني في هذه المدينة المهمة في عام 628 بأمر من محمد (...). كما أن هنالك نقطة مثيرة للغاية وهي: كم كان عدد النسخ التي بعث بها عثمان إلى عواصم الإمبراطورية (أربعة؟ سبعة؟)، وهي نسخ لم تصلنا ولا واحدة منها. والنسخ المخطوطة التي تقدم لنا غالبا على أنها كذلك (نسخة طشقند، على سبيل المثال، أو نسخة توب كابي)[27] هي نسخ متأخرة. ومن الممكن أن نكتشف أو نعثر ذات يوم على نسخة من نسخ عثمان. وفي انتظار ذلك، فإننا نتعجب لماذا لم يحفظ لنا الورع الإسلامي، ولم ينقل في إجلال، نسخة من نصوص القرآن الأولى؟

شهادات محرجة

منذ منتصف القرن التاسع عشر، حاول العلماء الأوربيون، مزودين بأدوات العلم العلماني أن يعرفوا بوضوح أكثر أصول الإسلام وتشكُّل القرآن. وبالنسبة إلى المدونة القرآنية، فإن المدرسة الألمانية - وذلك سيرا على نهج الهنغاري إجنتس غولدتسيهر[28] - هي التي وضعت قواعد للدراسة النقدية للنص، مستقلة تماما عن (العلم) التقليدي الذي لا يزال سائدا بين علماء الإسلام، وتبعه في ذلك الفرنسيون ومنهم (كازانوفا، وبلاشير)، وكذلك من قبل الأنجلوسكسون الذين يتفوقون اليوم في هذا المجال. ويلجأ علماء الإسلام من أجل تحقيق مقاصد الإيضاح والتعليق على القرآن إلى مصدرين: الأحاديث والسيرة. والحال، أن هذين المصدرين، كما قلنا في الفصل السابق، يشكوان في نظر العلم العلماني عيوبا كثيرة وإن ادعت أنها مصادر مستغرقة في الكتابات الأولى، فإن درجة المصداقية في سلسلة النقل تبقى موضع شك، والتركيبة بعيدة عن الحدث ... الخ. (مع أنه) من المحال، بالمنظور الإحصائي الخالص إلا يكتسب عدد من الأحاديث صفة الصحة حتى وإن كان قليلا إذا ما قورن بمئات الآلاف من الأحاديث التي نالها الجمع...). ويبدو من الصعب

24. استعمل الكاتب كلمة (أرثوذكسية) التي تحيل إلى ما هو رسمي، أو وثوقي، أو نصي، وبالطبع إلى مذهب مسيحي. وفي تقديرنا، فإن سياق النص يقتضي استعمال كلمة (رسمي أو معتمد) وليس (أرثوذوكسي)، وذلك رفعا للبس.(م).

25. في إشارة إلى ابن مسعود، وإلى وجود عمليات تحسين في البداية.

26. ثمة ما يدعو للفضول وهو أن الشيعة قد اعتمدوا النسخة السنية مع أنهم يدافعون بالدليل عن اشتمال مدونة علي على وجوه اختلاف.

27. يستعمل الكاتب كلمة قرآن بدلا من مصحف أو نسخة من المصحف. (م).

28. يعد اجنتس جولد تسيهر(1850-1921) أبا الدراسات الإسلامية في دوائر الاستشراق، وذلك بالنظر إلى أهمية أعماله، ومنها: **مذاهب التفسير الإسلامي**، ترجمة عبد الحليم النجار، و: **دراسات محمدية**، ترجمة الصديق بشير نصر.(م).

تعيين حدود هذه النواة واستخراج أي شيء مؤكد. ويضاف إلى ذلك على وجه الخصوص الاعتراف بأن «أسباب النزول» - كما يسميها علماء الإسلام - تلك التي تروي الظروف التي نزلت فيها سورة معينة للإجابة على وضعية محددة، هي بعيدة عن أن تفسر تاريخيا أصل بعض المقاطع القرآنية، ألا يبدو أن هذه الأسباب قد ظهرت لتسوغ أحداثا لاحقة. والأمر نفسه بالنسبة إلى السيرة النبوية (حياة الرسول)، والتي رأينا أنها تشكو من العيوب نفسها التي تشكو منها الأحاديث.

إن هاتين المجموعتين - الحديث والسيرة - مجموعتان أساسيتان لدراسة العقيدة وتطور الإيديولوجية الإسلامية، ولكنهما من الناحية العلمية لا يمكن استعمالهما تقريبا، أو على الأقل من دون إجراء غربلة نقدية صارمة عليهما. وباعتبار أن القرآن تقريبا صامت حول تاريخه الخاص، فإنه باللجوء إلى المصادر التاريخية الكثيرة أو المختلفة - إسلامية أو غير إسلامية أو غير ذلك - قام المستشرقون وعلماء الإسلاميات بمحاولة فهم الكيفية التي تشكل بها النص المقدس للإسلام ماديا.

المصادر غير الإسلامية متأخرة نسبيا، وقد مثلت في الأساس بثلاث وثائق. وقبل تحليلها، علينا أن ننظر بداية في وثيقة أخرى[29] وهي وثيقة، وإن لم تشر إلى القرآن، تمثل أقدم شهادة نملكها حول حوار لاهوتي بين مسيحي وبين مسلم (أو بالأحرى الهاجري)[30]، لأن لفظ المسلم قد ظهر متأخرا.

ونحن نجهل تاريخ تحرير هذه الرسالة التي تتضمن الحوار، والذي حدث في مكان ما في سوريا التي تم غزوها قريبا من قبل الجيوش الإسلامية، ولكن الحوار وقع في حدود سنة 644، أي بعد اثنتي عشرة سنة من وفاة الرسول[31]. استدعى الأمير(يرى النقاد أن الأمير المقصود هو عمير بن سعد الذي كان واليا على حمص) بطريرك الكنيسة اليعقوبية، ومعه خمسة أساقفة، وطرح عليهم مجموعة من الأسئلة بغرض توضيح العقيدة المسيحية.

- سأل الأمير: أإنجيل واحد هو المستعمل عند مختلف الشعوب؟ أجاب البطريرك بالإثبات.

- إذا كان الإنجيل واحدا، لماذا تختلف العقيدة بحسب الجماعات؟

- اليهود، والسامريون، والهاجريون، والمسيحيون يعترفون كلهم بأسفار موسى الخمسة، ولكن لكل واحد منهم تأويله الخاص به.

- هل المسيح إله أم لا؟

29. فضلنا استعمال كلمة وثيقة أو مخطوطة بدلا من مقطع أو قطعة كما عبر بذلك الكاتب. (م).

30. بمعنى أبناء هاجر، الزوجة الثانية لإبراهيم وأم إسماعيل.

31. ترجم النص إلى الفرنسية لأول مرة ف. نو، انظر:

Un colloque du patriarche Jean avec l'émir des Agareens ,op.cit.

- إنه الإله والكلمة، إنه المتجسد ... الخ.

- إذا كان إلها، فمن كان يحكم السماء والأرض عندما كان في بطن العذراء؟

- هو، وكان الله يحكم السماء والأرض عندما نزل إلى موسى في جبل سيناء.

- ما عقيدة إبراهيم وموسى؟ ولِمَ لم يعرفوا المسيح؟

- إبراهيم وكل الرسل يؤمنون بالعقيدة المسيحية. ولم يقولوا بذلك إلا كنوع من الحذر من سذاجة الجمهور.

- هل يمكن للبطريرك أن يثبت بالعقل وبالشريعة أن المسيح هو الله، وأن يبين ذلك في الإنجيل؟

- قدم البطريرك النبوءات، ولكن الأمير رفض كل شهادة حول ألوهية المسيح أو موسى. واستشهد البطريرك بالنص: «وأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من السموات»[32].

- طلب الأمير أن يرى النص، فقدم له النص باليونانية والسريانية. سأل الأمير يهوديا بغرض معرفة إذا كان ما ورد يتناسب حرفيا مع الإنجيل. عبر اليهودي عن تردده وشكوكه. ثم سأل الأمير البطريرك عن الشرائع التي يتبعها المسيحيون (هل هي موجودة في الأناجيل؟ الخ). أجاب البطريرك إجابة عامة. ترك الأمير المسيحيين يعيشون أحرارا، وأن يتبعوا قوانين الأناجيل أو أن يدخلوا في الإسلام[33].

---

32. إشارة إلى قريتين في زمن لوط وإبراهيم. أنظر:

- الكتاب المقدس، **العهد القديم**، دار المشرق، بيروت لبنان، ط 8، 2012، ص 94، تدمير سدوم.

- ولقد بين ذلك القرآن الكريم في عدد من سوره وآياته، فقال: "و لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين. قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين. إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون. ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون".العنكبوت29/ 35-30. وكذلك: الأعراف7/ 84-80؛ هود11/ 76- 83؛ القمر54/ 39-33؛ التحريم66/ 10؛ الأنبياء21/ 74؛ الشعراء26/ 173-170؛ النمل59-27/54.(م).

33. لم أتمكن من الاطلاع على هذا النص في صيغته العربية، والنص الفرنسي ترجم من السريانية وليس من العربية كما يوحي بذلك المؤلف. والنص عبارة عن مخطوط بالمتحف البريطاني تحت رقم (17193.ADD)، صفحة 248 -256. هذا ويجب الإشارة إلى أن المؤلف لم ينقل النص الفرنسي حرفيا، وإنما تصرف فيه. ولمزيد من الاطلاع انظر:

-Le colloque du patriarche Jean et d'Amrou (9 mai 639). Faits divers des années 712 a 716, d'après le manuscrit du British Museum ADD17193.(م).

هذا الحوار- الذي يصفه بعضهم بأنه «نوع من القصة الخيالية»[34]، ولكنه ذو حظ موفور من الحقيقة والأصالة – ولم يتم استغلاله حقا من قبل علم الإسلاميات، وذلك إلى العام 1915 عندما ترجم لأول مرة إلى الفرنسية[35]، وتحديدا في العام 1916، عندما اعتقد الحبر الجليل ألفونس مينغنا، قس كنيسة الكلدانيين- وكان قد نفي وأبعد إلى انجلترا- وهو سرياني جاد، أنه وجد شاهدا يعزز أطروحته، وفحواها أن القرآن لم يدون إلا بعد التاريخ الذي يقره التقليديون. لقد لاحظ مينغنا بالفعل - وهو مجمِّع كبير للمخطوطات، ولغوي متميز، ولكنه في الوقت نفسه مناهض للإسلام، وقد يكون مزورا أحيانا[36] - أن الرسالة موضوع النقاش لا تشير إلى القرآن، ولكنه بتحليله في الوقت نفسه لحوليات مسيحية تشير إلى الإسلام الذي ظهر حديثا، خلص إلى أن «المؤرخين المسيحيين في القرن السابع لم تكن لهم أدنى فكرة عن أن للغزاة الهاجريين كتابا مقدسا»[37]. ومن دون التقليل من أهمية هذا الصمت المريب، فإنه يتبين تلقائيا، أن استنتاج مينغنا متعجل جدا. فالصمت لا يعني غياب الشيء. وفي المقابل، نستطيع أن نلاحظ ما تحتويه الأسئلة اللاهوتية التي طرحها الأمير من أهمية كبرى، وأنها تحدد بقوة، وبطريقة سلبية، العقيدة الإسلامية. إن السؤال حول معرفة ما إذا كانت الشريعة المسيحية موجودة في الأناجيل هو سؤال ذو دلالة (يلاحظ أن البطريرك فيما يبدو قد تجنب الإجابة عن السؤال، في حين أن الإنجيل يتضمن عددا مهما من (التشريعات) الإلهية بالمعنى الحرفي القرآني)[38]، ويتضح ذلك من خلال مثال المواريث في الشريعة الإسلامية التي يتضمنها القرآن.

تحتاج هذه الوثيقة إلى تحليل من نوع مغاير ومعمق (في ما يتصل بمكانة موسى والتوراة بالنسبة إلى الإسلام الذي ظهر حديثا)، وعن «الوثيقة الغريبة التي قدمها البطريرك إلى الأمير ليدلل على طبيعة المسيح الخالدة مع الأب...الخ»، ولكنها تؤدي بنا بالأخص إلى تحليل ثلاث شهادات يبدو أنها تعيد النظر في التاريخ الرسمي لتشكيل القرآن.

---

34. أنظر:

Christian Decobert, *Une littérature de la domination religieuse*, **Archives de sciences sociales des religions**, N140, 2007.

- يقول هذا المؤلف: إن القول بأنه خيال أدبي لا يعني بالضرورة غياب الإحالة إلى الواقع، وإلى المعيش.

35. ترجم من قبل ف.نو، في:

Un colloque du patriarche Jean avec l'émir des Agaréens ,op.cit.

- يمكن العودة إلى الموقع الالكتروني الآتي:

www.archive.org/stream 11 journalisaiatique 05 sociuoft#pages/225/mode/1up.

36. انظر:

- A.Fedeli, *Mingana and the Manuscript of Mrs. Agnes smith Lewis, one Century Later*, **Manuscripta Orientalia**, 2005.

-مينغنا هو أول من قدم) دون أن يعدم الحجج الجادة (بفكرة تأثير السريانية على عربية القرآن .هذه الأطروحة التي تبناها في أيامنا هذا وحملها على عاتقه الشخصي كريستوف لكسنبورغ.

37. لم يوثق الكاتب نص مينغنا.(م).

38. المقصود بذلك الشريعة المسيحية التي تتضمن المنع المطلق للطلاق، وواجب التعميد، والسلطة المعطاة للقساوسة.

الشهادة الأولى، مكتوبة بالسريانية، وتروي (من وجهة النظر المسيحية) مناظرة يعود تاريخها إلى عام 720 تقريبا، بين كاهن، يسمى عادة راهب (بيت هاليا)[39]، وأمير مسلم. هذه المناظرة - الوفية لهذا النوع من الحوار الدفاعي الذي يميز (الخيال الأدبي) لا تقل أهمية - وسنكتفي، بالنسبة إلى موضوعنا، بهذه الجملة التي قالها المناظر المسيحي:

اعتقد أنه بالنسبة إليكم أيضا (يعني المسلمين)، فإن شريعتكم ووصاياكم التي علمكم إياها محمد ليست كلها في القرآن. ما علمكم إياه، بعضه في القرآن وبعضه الآخر في «سورة البقرة»...

والحال، أن سورة البقرة، بمعنى (العجل)، كما نعرفها اليوم، هي السورة الثانية من القرآن! فلماذا ميز راهب بيت هاليا، أو بالأحرى المؤلف الذي نسميه بهذا الاسم، هذه السورة عن النص المقدس؟ هل لأن معرفته بالقرآن كانت معرفة سيئة، أو لأن القرآن لم يُعرف، على الأقل في العراق، على صورته الراهنة؟

إنه سؤال قريب الشبه جدا من السؤال الذي تطرحه الوثيقة الثانية التي تهمنا، والتي كتبها رسميا عالم في الكنيسة هو القديس يوحنا الدمشقي. وقد ولد هذا القديس بعد أربعين سنة من وفاة محمد وتوفي في حدود 750م. عاش يوحنا الدمشقي - واسمه الحقيقي منصور بن سرجون، بمعنى (المنتصر ابن سرجون) في ظل الخلفاء الأمويين الأوائل. سليل أسرة عريقة عربية مسيحية، عمل مثل أبيه وجده، موظفا في إدارة الضرائب، قبل أن يصبح راهبا. في الفصل 101/100 من كتاب: (**في الهرطقة**) الذي يشكل الكتاب الثاني من عمله الكبير: (**منبع المعرفة**)، نجده يتحدث عن (الديانة الإسماعيلية). إنه الوصف المسيحي الأول للديانة الإسلامية الذي بحوزتنا، ومن المحاولات الأولى، والسجالية جدا، في نقض الإسلام. وإذا كان هذا النص في حقيقته الجزئية مزورا[40]، فإن ذلك لا يقلل من قيمته بوصفه وثيقة في تلك الحقبة (القرن الثامن) في المسألة التي تعنينا. فمن ناحية المصادر، لم تدرس هذه الصفحات إلى يومنا هذا إلا قليلا. وكونها مثيرة للقلق بحكم أنها تجمع بين عرض دقيق لبعض نقاط العقيدة الإسلامية، وبشكل أساسي دراسة شخصية المسيح وتعاليمه، وبين معلومات مغرضة أو لا تتسق مع القرآن الذي بين أيدينا. وهكذا، فإنه وبعد أن عرض سورا كثيرة معروفة (البقرة)، (النساء)، (المائدة)، فإن اللاهوتي والمجادل المسيحي - أو الذي استعار اسمه - استنسخ بعض «ملامح ناقة الله». والحال، فإنه إذا كان مؤكدا أن القرآن قد تحدث عن ناقة ضحى بها شعب كافر

39. لم يقدم المؤلف معلومات عن هذا الراهب، ولكنه يبدو أنه يستعيد ما قاله ألفريد لويس دي بريمار في كتابه: **أصول القرآن**، الذي يشير إلى أن راهب بيت هاليا بالعراق ويسمى إبراهيم والذي عاش في حدود (670)، قد أجرى مناظرة بينه وبين شخص مسلم، استعمل فيها ألفاظا مثل: محمد، القرآن، كتبهم. ص 87 من كتاب:

- Alfred – Louis de Premaire, ***Aux origines du Coran: questions d'hier, approches d'aujourd'hui***, teraedre, 2004..(م)

40. أنظر:

- Christian Decobert, op.cit.,

- وكذلك:

- A.Abel, Le Chapitre CI du Livre des Herisies de Jean Damascene: sans inauthenticité, op.cit.

هو شعب ثمود (السورة السابعة)[41]، فإن الفصول والحلقات التي عرضها الدمشقي، أو الذي قدم نفسه كذلك، لا تتفق مع أي شيء معروف في الكتاب المقدس للإسلام! (نسجل هنا بأن المقطع السجالي عار كلية عن الصرامة والعقلانية التي ميزت لاهوت يوحنا الدمشقي). كيف نفسر إذن هذا الخليط من عدم الدقة العقائدية والأخطاء حول النصوص؟ إما أن مصادر المساجل المسيحي كانت بالغة التفاوت جدا في طبيعتها. وهو أمر ممكن، أو أن المقطع الخاص بالنقل قد دس وحرف (و هو أمر ممكن أيضا)، أو أكثر من هذا، وهو الأمر نفسه بالنسبة إلى راهب بيت لاهيا، أن يكون القرآن الذي عرفه المؤلف المسيحي لم يكن قد تشكل بعد بوصفه النسخة القانونية والرسمية التي نقرأها اليوم. وبالطبع، فإن الفرضية الأخيرة هي الأثيرة على وجه القطع لدى المناهضين للإسلام...

المصدر الخارجي الآخر الذي يهمنا يتمثل في رسالة لشخص يدعى الكندي[42] الذي عاش في بغداد في القرن التاسع. يدور هذا الحوار بين مسيحي (المؤلف) ومسلم (يدعى الهاشمي)، ليس نص الرسالة أصيلا، كما كنا نعتقد منذ زمن طويل. الجزآن الأولان كتبا من قبل المؤلف المسيحي، الذي استعمل هذا الحوار الكاذب وسيلةً دفاعية متقدمة وهجومية. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون موثقا توثيقا جيدا في ما يتصل بالإسلام (لا شك أنه كان موظفا في ديوان الخلافة)، والسيرة النبوية، وتدوين القرآن، وحول هذه النقطة، فإنه يبدو مضطربا، بحكم أنه، ومن أجل أن ينقض أطروحة الأصل الإلهي للقرآن، يلجأ الكندي إلى وزير الخليفة عبد الملك، ألا وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي فحص بنفسه النص المقدس. وبحسب الكندي، فإن الوزير لم يكتف بتوحيد الخط ولكن:

«لم يترك أي مجموعة (من مصحف عثمان) إلا واحتجزها. وأنه أسقط سورا وأضاف أخرى، ويرجح بعضهم أنها تتصل برجالات بني أمية وبني العباس[43]، مذكورين بأسمائهم الخاصة، وأن النسخة التي جمعها الحجاج قد نسخ منها ست نسخ: نسخة أرسلت إلى مصر، وأخرى إلى دمشق، والثالثة إلى المدينة، والرابعة إلى مكة، والخامسة إلى الكوفة، والأخيرة إلى البصرة. أما النسخ الأخرى التي جمعت فقد وضعها في زيت مغلي وأتلفها، مقتفيا بذلك ما قام به عثمان»[44].

لا ينبغي النظر إلى المناظرة نظرة حرفية، كما لا ينبغي أن نفهم المناظر فهما حرفيا. ولا يخرج الكندي عن هذه القاعدة. ولأننا سنجد لهذه الحجة السجالية ما يماثلها في الأدب العربي الإسلامي نفسه وهو ما يدعو للعجب.

41. يشير الكاتب إلى الآية الآتية: "وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم. الأعراف7/ 73.(م).

42. المقصود به عبد المسيح بن إسحاق الكندي الذي عاش في القرن التاسع الميلادي. وعرف برسالته التي كتبها ردا على رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي التي دعاه فيها إلى الإسلام. ولقد ذكرها البيروني في كتابه: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**. كما رد عليه في العصر الحديث أبو الثناء الألوسي في كتابه: **الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح**، دار البيان العربي، القاهرة- مصر، 1987.(م).

43. يعني أسلاف الأمويين والعباسيين.

44. لم يوثق المؤلف هذه الرواية.(م).

مؤرخون هرطقيون

يكاد يكون كتاب الإسلام المقدس صامتا فيما يتصل بتاريخه الخاص. إنه يشير، وليس ذلك من دون مسوغ، إلى الكتب المقدسة السابقة عليه. ومن ثم، ليس غريبا أن نقدا أدبيا خالصا يمكن أن يعاين بيسر، تقاربا وتسلسلا، وذلك بحسب وجهة النظر التي نتبناها مع الإنجيل العبري أو الأناجيل المزورة. وهنالك تشابهات ومصادر أدبية وسرية كثيرة، قد اكتشفت. وبالتأكيد، فقد قام بعضهم بالاعتراض على هذه التشابهات والتسلسلات (يتعلق الأمر ببعض المصادفات التي تتصل بثوابت عزيزة على المقارنين)[45]. لقد ظن النقد الأدبي أنه قد وجد ضالته على سبيل المثال في: **ملحمة جلجامش**، و: **رواية الإسكندر**، و: **خرافة الكاهن جوزيه بن ليفي**، وفي مصادر لمغامرات موسى وصاحبه الخضر في سورة الكهف. إن الإسلام الرسمي، وهو ما نشك فيه، في تشجيعه لمثل هذه الأبحاث، فإنه يجهل التناقضات الملازمة لمذهبه بخاصة، والمصادر الإسلامية التي لا تتفق مع الرؤية الرسمية لتدوين النص المقدس.

من بين هذه المصادر، هنالك مؤرخان قديمان وجليلان يفتحان طرقا غريبة بالنسبة إلى تاريخ تدوين القرآن. إن معلوماتهما ليست أوفر حظا من التحقق إذا ما قورنت بما تقدمه سلسلة النقل في الأحاديث، ولكنها مع ذلك شاهدة على الأقل بأنه في القرون الإسلامية الأولى، كان ثمة تداول لنسخ أخرى غير النسخة التي تمثل اليوم النسخة (الرسمية) لتدوين القرآن. أول هذين المؤرخين هو ابن سعد صاحب كتاب: **الطبقات الكبرى**، والذي كتب عنه ألفريد لويس دي بريمار: «بالنسبة إلى مؤلف مثله ركز على مشاكل النقل والانتقال، فإن التاريخ الحقيقي أو الواقعي لمدونة القرآن يبدو ضبابيا، وهوية جامعيه غير مؤكدة»[46]. وفي الواقع، فإن ابن سعد لا يستشهد بأبي بكر ولا بعثمان على أنهما من بين الذين قاموا بجمع القرآن! ولكنه يجعل عمر - الخليفة الثاني - هو صاحب فكرة هذه العملية (حتى وإن كانت عملية الجمع لم تكتمل عند وفاته). وهذا المؤرخ نفسه لا يشير إلى «الصحف» التي احتفظت بها حفصة. وأخيرا، وطبقا لقوله، فإن أُبيّا هو الذي يجب اعتباره «كاتب الوحي»، وذلك خلافا للرواية الرسمية التي تجعل هذا الدور لزيد. إنها رواية مغايرة للرواية الرسمية.

والمؤرخ الثاني هو ابن شبة (معاصر للبخاري، وتوفى في عام 876 بالبصرة)، ومؤلف أهم كتاب عن المدينة التي كانت تضم مختلف التقاليد السابقة[47]. لم يشر إلى أبي بكر، ولكنه ذكر أن عمر هو الذي بدأ

---

45. أنظر الموقع الآتي:

Islamic Awareness: www.islamic-awareness.org/quran/Source/BBalex.html

46. أنظر:

- **Aux origines du Coran**, op.cit., p.73.(و ما يتبعها)

47. المقصود بذلك كتابه: **المدينة المنورة**.(م).

عملية جمع القرآن، ولكنه: «قتل قبل أن يتمكن من جمع الكتاب»[48]. ويؤكد هذا المؤرخ أن ثمة مصاحف كثيرة متنافسة في هذه المرحلة، منها مصحف ابن مسعود في الكوفة (بالعراق)، ومصحف أُبي في دمشق، ومصحف زيد في المدينة. وإننا نعلم، استنادا إلى مصادر أخرى أن نسخة أبي لا تزال متداولة في القرن التاسع في جنوب العراق، وأنه بناء على قرار قضائي في القرن العاشر تم إتلاف مصحف ابن مسعود. وعلى هذا الأساس، نرى أن تاريخ تدوين القرآن من خلال المصادر الإسلامية الموثوقة نفسها، كان تاريخا طويلا ومعقدا إذا ما قورن بما تحاول أن تقنعنا به السنة (المعتمدة). كما نرى أيضا أن المصحف القرآني، الذي تقدمه السلطة الرسمية على أنه المصحف الذي قد تم جمعه مبكرا، كان في الواقع يتعايش مع نسخ أخرى متنافسة، ثم تم فرضه أخيرا. لماذا؟ وكيف؟ سنقدم فيما يلي بعض الأجوبة.

القرآن والزمانية

القرآن الذي نقرأه اليوم يبدو بالفعل أنه شاهد، على الأقل، في ثلاثة أشكال، إنه لم يكن نصا ثابتا. لأنه يتضمن ابتداء بعض السور المنسوخة رسميا بسور أخرى متأخرة. والمثال المعروف لهذه الحالة ما تعلق بشرب الخمر الذي يشار إليه كـ «علامة» إلهية (السورة 16، الآية 67)[49] مسموح به خارج الصلاة (السورة 4، الآية 43)[50]، ثم بعد ذلك تم تحريمه (السورة 5، الآية 90-91)[51]. وأما أن يكون الوحي قد نزل بناء على بعض المواقف والحالات التاريخية والإنسانية (نقدم غالبا بالنسبة إلى الآية 43 السورة 4)، حادثة الشخصين المخمورين اللذين أقبلا على الصلاة في المسجد)، وأن مضمونه قد تطور، فإن هذا لا يثير العجب إذا اعتبرنا أن النص المقدس قد أوحي إلى النبي الذي بلغه. ولكن في المقابل، فإنه يصعب القبول منطقيا وميتافيزيقيا، أن يملى على النبي كلمة الله ذاتها- تلك التي تتصف بالضرورة بالثبات بما أنها تمثل وجوده – ثم تتعرض هذه الكلمة إلى التغير.

و يحتفظ التراث الإسلامي أيضا، بما يشير إلى أن ثمة آيات قد تم (نسيانها) أو أنها (ضاعت). فكيف يمكن لنا أن نفهم على سبيل المثال - إذا صدقنا البخاري [52]- أن الرسول شخصيا، سمع ذات يوم مسلما صلى في المسجد، فتعجب وقال: «ليرحم الله هذا الرجل، فلقد ذكرني بالآية كذا وكذا، كنت أنسيتها من سورة كذا

48. ذكره ألفريد لويس دي بريمار، المرجع نفسه، ص 69

49. المقصود بذلك الآية: "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون". سورة النحل16/ 67.(م).

50. المقصود بذلك الآية: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون». سورة النساء4/ 43.(م).

51. المقصود بذلك الآيتان: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون». المائدة5/ 90 -91.(م).

52. أحال إليه:

- Mondher Sfar, ***Le Coran est-il authentique?*** Editions Sfar, 2000,p.35.

وكذا»[53]؟ وبحسب السنة، فإن هذا الحديث روته عائشة، الزوجة المفضلة لمحمد، وإليها ينسب هذا القول: «إن السورة 33 (الأحزاب) كنا نقرؤها في زمن النبي بمائتي آية. ولكن عندما جمع عثمان المصاحف (بمعنى جمع القرآن)، لم يتمكن من جمع إلا ما تتضمنه الآن»، أي ثلاثة وسبعين آية[54]. إن ضياع مائة وسبع وعشرين آية ليس بالأمر الهين! وينقل لنا التراث حالات من النسيان أو حذف الآيات، بعضها قد جرى تلاوته (طويلا) قبل أن (تستبعد). وكما يروي ذلك أنس بن مالك خادم الرسول[55]، بخصوص آية تحمل كلمات المجاهدين الذين ماتوا في المعركة: «إنهم قد لقوا ربهم، فرضي عنهم وأرضاهم»[56].

إن هذا النسيان أو الحذف يحيلها القرآن نفسه إلى عملية إلهية: (السورة 2، الآية 106)[57]. حقا، إنه يصعب علينا أن نفهم كيف يمكن للقدرة الإلهية الكلية أن تكون محدودة بأي شيء من الأشياء، ولكن هذه التغيرات ليست أقل إشكالا إذا ما قورنت بما يتصل بالنسخ.

يعود الأمر في هذا إلى منذر صفر، الباحث التونسي الجسور الذي لم يتردد بإعطاء عنوان استفزازي لكتابه: **هل القرآن أصيل؟** وإليه تعود الجرأة في بناء فرضية مؤداها أن ثمة مسافة تفصل في العمق بين القرآن المكتوب أو الأرضي كما نقول، و(أم الكتاب)، بمعنى نموذجه، الذي هو، وبحسب النص المقدس

---

53. لم يوثق الكاتب هذا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، رجلا يقرأ في سورة بالليل، فقال: يرحمه الله، لقد ذكرني آية كذا وكذا، كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا". صحيح البخاري، كتاب: **فضائل القرآن**، باب: **نسيان القرآن**، وثمة حديث مماثل يرويه أبو داود في سنده. أنظر:

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح للسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، الجزء الثالث، المكتبة السلفية، القاهرة – مصر، 1400 هجرية، ص ص 349-348. (م).

54. ذكره السيوطي في كتابه **الإتقان**، وأحيل إليه هنا كما جاء:

- M.Sfar, op.cit., p. 42.

- روي عن عائشة: "إن سورة الأحزاب كانت تقرأ في زمان النبي، صلى الله عليه وسلم، في مائتي آية، فلم نقدر منها إلا على ما هو الآن". أنظر:

- جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثالث، مكتبة دار التراث، القاهرة – مصر، (د-ت)، ص 72.(م).

55. انظر:

- L.-A. de Premare, ***Aux origines du Coran***, op.cit., p.112-113.

- يحيل هذا المؤلف إلى مختلف مصادره.

56. لم يوثق الكاتب هذا الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، في باب من ينكب أو يطعن في سبيل الله: "حدثنا حفص بن عمر الحوضي: حدثنا همام عن إسحاق، عن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم أقواما من بني سليم إلى بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن آمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا كنتم مني قريبا، فتقدم فآمنوه، فبينما يحدثهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجل أعرج صعد الجبل – قال همام: فأراه آخر معه – فأخبر جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم: إنهم قد لقوا ربهم، فرضي عنهم وأرضاهم، فكنا نقرأ: أن بلغوا قومنا، أن قد لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحا، على رعل، وذكوان، وبني لحيان، وبني عصية، الذين عصوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم". انظر:

- أبو عبد الله البخاري، **الجامع الصحيح**، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص 306. (م).

57. المقصود بذلك الآية: "وما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير". البقرة2/ 106. (م).

نفسه، قائم في اللوح المحفوظ عند الله. وإذا ما صدقنا هذا الباحث، فإن هذه الفرضية تسمح بتسويغ التغيرات والنسخ في كتاب الإسلام «من دون أن ينال الشك اللوح المحفوظ»[58].

إننا نرى أنه حتى إذا كانت الرواية الرسمية في تثبيت النص المقدس بالكتابة تبدو إلى اليوم موثوقة جوهريا، فإن أسئلة أو ألغازا ليست قليلة لا تزال تدور حول تدوين القرآن. ومن هذه الأسئلة تولدت أسئلة أخرى: لماذا على سبيل المثال، ينسى الإسلام أنه في القرن العاشر في بغداد، وفي ظل نهضة المدرسة الاعتزالية، التي تميزت بلاهوت عقلاني، كانت عقيدة خلق القرآن قد أصبحت خلال عشرين سنة، عقيدة أهل السنة أو الوثوقية السنية؟ فهل الخلفاء واللاهوتيون الذين فرضوها كانوا مخطئين؟ أم أنهم فتحوا بابا اعتبرته السلطة السياسية والدينية خطيرا، واستشعرت أن هذه العقيدة ستحرر عاجلا أم آجلا الممارسة الفردية للعقل في مجال العقيدة؟

إن وثائق صنعاء قد زعزعت الصرح الجميل للوثوقية المسلمة، ولكنها لم تقدم حلولا، بل لم تهتم بذلك. والتعاون الألماني اليمني من أجل حفظ هذا التراث الرائع، كاد يأتي بثماره في هيئة متحف - دار المخطوطات - كما قام بعمل معتبر في الترميم، إلا أن اللغز لا يزال قائما بشأن مصير الأفلام التي صورها بوين، وبخاصة ما انتهى إليه من خلاصات، الفقيه اللغوي الألماني وزملائه. لقد لاحظ بعض المختصين الجادين في هذا المجال ما يأتي: «يمكننا أن نسأل لماذا، بعد سنوات من الاكتشاف الرئيسي لهذا القرآن، لم ينشر غارد. ر. بوين ومساعدوه في الموضوع إلا مقالات قصيرة...»[59]. وحقا، إننا نتساءل.

58. Ibid.,p.110.

59. Mohammed Ali Amir-Moezzi(dir.), préface au ***Dictionnaire du Coran***, coll. Bouquins, Robert Laffont, 2007.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016